الرحالة العربى الثائر

«جاء مصر وأدى رسالته ، ثم
مات فى ظروف مريبة !!»

استيقظت القاهرة فى ساعة مبكرة من الصباح على نبأ هزها من الأعماق. وأثار الحزن والدهشة، وفتح باب الريبة والشك على مصراعيه...

كيف مات... العالم المفكر الثائر هكذا بغتة ؟! وقد كان إلى ما بعد منتصف الليل يجلس فى مقهى يلذز بالقرب من حديقة الأزبكية وحوله أصدقاؤه من الثائرين والمفكرين وقادة الرأى يتناقشون فى السياسة والعلوم وفنون الأدب، وكان يشترك فى المناقشة بصوت هادئ وابتسامة حذرة، فقد جاء إلى مصر موئل الأحرار... ليقول كلمته ضد الاستبداد عامة... وضد استبداد الدولة العثمانية بوجه خاص... واستطاع أن يؤدى رسالته بشجاعة وجرأة، وصلابة استفزت غضب

السلطان عبدالحميد، ولقيت تجاوبًا جارفًا من الشعب العربى، وأرضت شعور الخديو عباس... فقد كان مختلفًا مع السلطان!

وفوجئ الناس بنبأ وفاة عبد الرحمن الكواكبى... صباح يوم الجمعة ١٥ يونيو من عام ١٩٠٢. وكان إلى ما قبل ساعات يتحدث ويبتسم، ومخايل الصحة بادية عليه... وامتدت الأصابع إلى الخديو عباس... منوهة بأنه هو الذى قتل الكواكبى!!

ولكن... متى استطاع عباس ذلك، وقد ظل الكواكبى مع أصدقائه فى المقهى إلى ما قبيل الفجر وذهب إلى البيت فى صحبة ابنه كاظم؟ وكيف يقتل الخديو عبد الرحمن الكواكبى وكان موضع إكرامه، وقد اختار الكواكبى لنشر مقالاته عن «طبائع الاستبداد» فى جريدة المؤيد... التى كانت اللسان المدافع عن عباس ضد جميع أعدائه فى الداخل والخارج...

إن الذين تناولوا حياة الكواكبى بالبحث الموضوعى أو الدراسة الجانبية... بينهم معاصرون له أمثال رشيد رضا،

ومحمد كرد علي، وأحمد شفيق، وبينهم من تعمقوا فى تحليل اتجاهاته السياسية وفلسفته فى إصلاح الأمة وتدعيم قوة الإسلام... مثل الأساتذة: أحمد أمين وعباس محمود العقاد وسامى الدهان. وقد سلطوا الضوء العالى على حادثتين هامتين فى تاريخ الكواكبى... حادثة وصوله إلى مصر خلال فترة تأزمت فيها الأمور بين الخديو والباب العالى فى الأستانة... وحادثة وفاته فى ظروف غامضة...

ولكى لا يتوقف القراء وهم يتابعون هذا الكلام عن عبدالرحمن الكواكبى... يجب أن نعقد بينهم وبين الكواكبى علاقة شخصية تقربه إليهم، بحيث يرونه كائنًا حيًّا مازال يعيش بينهم.

كان مولد الكواكبى فى مدينة حلب عام ١٨٤٨، ومات فى القاهرة عام ١٩٠٢. وقد تعلم فى بلده، وأتقن اللغتين الفارسية والتركية، واعتمد فى صقل مواهبه وتنمية ثقافته... على الكتب التى تصدر بهاتين اللغتين، وعلى الكتب العربية، وأفاد من احتكاكه بالمناقشة والجدل مع المتابعين للثورة الفكرية فى أوربا، وقد تلقى من هؤلاء معلومات... فتح بها آفاقًا جديدة لدعوته التى حددها فى نقطتين. رفع كلمة الأمم

الإسلامية، وتقويض دعائم المستبدين، وبخاصة دولة آل عثمان.

وقد بدأ حياته صحفيًا فى جريدة تصدر باللغتين العربية والتركية... اسمها «فرات»، ثم أصدر بضع صحف فى حلب، وكان يهاجم فيها السلطان وأعوانه ويدعو إلى قيام خلافة روحية «قرشية»... واتهمه خصومه بأنه يريد أن يكون هو خليفة المسلمين، وأكدوا اتهامهم هذا بحرص الكواكبى على توضيح انتسابه إلى قريش واعتزازه بمجد الآباء والأجداد.

ولم يتمكن الكواكبى من أن يرفع صوته فى حلب... إلا بقدر ما نشر من مقالات «أم القرى»، التى دعا فيها إلى قيام جامعة إسلامية.

وكان على الرغم من حدته فى التعبير عن آرائه... يتهيب سطوة القانون، فلم يحض على ثورة دموية... كما كان يعمل المصلح الثائر المفكر جمال الدين الأفغانى. كان حريصًا فى مهاجمة الاستبداد على أن تكون المهاجمة فى إطار «قانون» فلا يتهم مستبدًا بعينه، ولا يحدد شخصيات بالذات...

وعندما أقام فى مصر ونشر مقالاته عن «طبائع الاستبداد»، لفت إليه الانتباه من المفكرين والثائرين وكسب احترامهم ومودتهم... ومع ذلك كان يجالسهم فى حذر، ويناقشهم فى حذر، فقد يكونون جميعًا من الأحرار الثائرين، ولكن مفاهيمهم للحرية والثورة كانت مختلفة متباينة، ففيهم الثائرون على كل شىء، وفيهم الثائرون على شىء... والراضون عما عداه من الأشياء!!

وهو لا يريد أن يغضب أحدًا منهم، فليس من السياسة أن يعادى من يحتفون به... وقد كان بتكوينه الذهنى وبحكم التجارب التى تمرس بها... شخصية سياسية من طراز ممتاز.

وكانت مصر فى تلك الأيام نهبًا لتيارات فكرية ثورية ضد الاستعمار الإنجليزى والفرنسى، وضد الخديو، وضد الخليفة السلطان عبدالحميد... الذى استعبد المسلمين عندما كانت دولته قوية، وتعقب أحرارهم بالدسائس والاغتيالات... بعدما صارت الخلافة والسلطنة ودولة آل عثمان عناوين ضخمة ليس لها موضوعات!...

وكان من يحارب الإنجليز... يتحالف مع الفرنسيين أو

مع الخديو أو مع السلطان، ومن يحارب واحدًا من هؤلاء من الأعداء يتحالف مع عدو آخر أو يتحالف مع بقية الأعداء...

وكانت مصر مركز إشعاع للفكر الثورى المتمرد على الاستعباد بكل أنواعه وأوضاعه، فهذا البلد الجذاب بآثاره وتاريخه، بلد سياحى يستقبل السياح العاديين ويودعهم بحفاوة أو بغير اكتراث، فإذا زارته عبقرية فذة، أصبح البلد السياحى مقرًّا دائمًا للعبقرية الفذة، ووطنًا أصيلا لصاحب العبقرية...

ولقد كان عبد الرحمن الكواكبى عبقريًا طاف بكثير من البلاد، ولم تطل إقامته فيها، ولم يجد فى أى بلد طاف به ظروفًا تسمح له بتأدية رسالته، فلما طاف بمصر، أحس أنها الحرم الآمن الذى يفتح له رحابه ليذكر كما يشاء، ويعتبر كما يشاء.

وقد وفد إلى مصر عام ١٨٩٩، ولقى ربه فيها عام ١٩٠٢، وخلال هذه الفترة قام برحلتين إلى بلاد كثيرة، وفى ذلك يقول: السيد رشيد رضا:

« إنه وجه همته أخيرًا إلى التوسع فى معرفة حال المسلمين ليسعى فى الإصلاح على بصيرة، فبعد اختباره التام لبلاد تركيا والأرمن، والأكراد ومصر، والسودان، وسواحل أفريقيا الشرقية، وسواحل آسيا الغربية... اختبر بلاد العرب التى كانت موضع أمله. فدخلها من سواحل المحيط الهندى. وما زال يوغل فيها... حتى وصل إلى سوريا، واجتمع بالأمراء وشيوخ القبائل، وعرف استعدادهم الحربى والأدبى وحالة البلاد الزراعية ودرس كثيرًا من معادنها وأحضر منها نماذج »...

ويستطرد السيد رشيد رضا فيقول :

« إن الكواكبى انتهى فى رحلته الأخيرة إلى (كراجى) من موانى الهند، وسخر الله له فى عودته سفينة حربية إيطالية فطافت به سواحل بلاد العرب وسواحل إفريقية الشرقية... فتيسر له بذلك اختبار هذه البلاد اختبارًا سبق به الإفرنج.

وكان ينوى أن يقوم برحلة إلى أوربا... لولا أن المنية عاجلته »...

ولكن القراء ما زالوا يعرفون الكواكبى برحلاته وأفكاره... ودعوته الإصلاحية فى سبيل الإسلام، وضد

الاستبداد، ولم يعرفوه بعد كإنسان له صوت وملامح... فكيف كان الكواكبي؟

يقول صديقه الأستاذ كامل التعزى:

«كان مربوع القامة، حنطى اللون مستدير الوجه، خفيف العارضين أقنى الأنف، واسع الجبين، ذا عينين زرقاوين، معتدل المقلة، لا غائرة ولا جاحظة، معتدل فتحة الفم، أزج الحاجبين، صغير الأطراف، معتدل الجسم بين السمن والهزال، أسود الشعر... قد وخطه الشيب حين فارق حلب إلى مصر».

ويقول صديقه الأستاذ إبراهيم سليم النجار:

«... وإنه كان أبيض الوجه بياضًا مشربًا بشيء قليل من الحمرة شأن سكان البلاد الباردة، وقد أحاط خديه بلحية قصيرة كانت كالإطار لوجهه ومد فيها الشيب خيوطه».

ويقول ابنه الدكتور أسعد الكواكبي:

«كان ربعة إلى الطول أقرب، قوىّ البنية صحيح الجسم عصبى المزاج، أشهل العينين، أزج الحاجبين، أبيض اللون، واسع الفم، عريض الصدر، أسود شعر الرأس واللذقن،

يتأنق فى لباسه، يتكلم بجهر هادئ وسلاسة وابتسام، يحسن السباحة والصيد والفروسية».

وهكذا... يستطيع القارئ أن يرنو بعينيه فيرى أمامه عبد الرحمن الكواكبى من خلال هذه الأوصاف، وإن كان سيلاحظ اختلافًا ملموسًا... بين من وصف فتحة فمه بالاعتدال... ومن وصف الفم بالاتساع... وبين من قال إن لونه قمحى... ومن قال إنه أبيض البشرة...

وقد سجل الأستاذ العقاد فى كتابه عن الكواكبى هذه المعلومات :

«سمعنا وصف سجاياه وملكاته العقلية ممن عاشروه، كما قرأنا هذا الوصف بأقلام مترجمة. فرأيناهم يتفقون على سجايا خلقه وملكات عقله. اتفاقهم على سماته وتكوين جسده، كأنهم ينظرون إلى ملامح محسوسة لا تخطئ العين رؤيتها ولا يختلف الناظرون إليها فى وصفها. فما من ترجمة له لم تبرز فى الكلام عليه صفات الوقار والحلم والنجدة، وعفة اللسان وحسن الملاحظة، وصدق الإرادة، وكأنما تثبت هذه الصفات فى نفوس عارفيه لأنها جاوزت أن تكون صفات مقدورة

وأصبحت أعمالا متكررة يؤيد بعضها بعضًا... فلا ينساها من رآها وسمع بها وبآثارها»...

ونعود إلى الحادثتين الهامتين فى حياة الكواكبى... وهما حادثة وصوله إلى مصر، وحادثة وفاته. وكلتاهما ترتبط بالأخرى فى مجال اتهام الخديو عباس بدس السم للكواكبى فى الطعام.

فقد جاء الكواكبى إلى القاهرة والأزمة على أشدها بين قصر عابدين وقصر يلدز. وأضفى عليه عباس ثوب الرعاية. وكان متحفظًا فى علاقته بأصدقائه من أعداء الخديو... مثل الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا وغيرهما. وكان متحفظًا كذلك فى علاقته بأصدقاء الخديو... فهو لا يؤثرهم بمودته، حتى لا يثير حوله شبهة تبعيته للخديو...

وقد ذكر الأستاذ محمد كرد على، وهو صديق الكواكبى، هذه الرواية:

«جاءنى الكواكبى ذات ليلة ليستشيرنى فى أمر عظيم فقال إن الخديو عباسًا عرض عليه أن يصحبه إلى الآستانة ليقدمه إلى السلطان العثمانى ويستجلب رضاءه عنه... وبذلك تنحل

المشادة ويطمئن خليفة الترك إليه».

ويمضى كرد على، فيذكر أنه صعب عليه وعلى صديقه رفيق العظم أن يبديا رأيهما فى موضوع خطير كهذا؛ لأن السلطان العثمانى لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه، وخشيا أن تكون هناك دسيسة يذهب الكواكبى ضحيتها.

ويستمر كرد على فى روايته... فيقول:

إن الكواكبى أخبره هو وصديقه العظم أنه حائر فى أمره بين القبول والرفض، وأنه شعر بالأمس بوجع فى ذراعه وما عرف له تعليلا، وانفض المجلس وذهب السيد الكواكبى إلى داره، فما هى إلا ساعة وبعض ساعة، حتى سمعنا ابنه كاظم فى الباب يبكى وينوح ويقول: «قم ياكرد على، فإن صديقك أبى قد مات»...

وروى أحد أصدقائه أنه ذهب إلى الإسكندرية بدعوة من الخديو عباس لبضعة أيام.

والذين أشاروا إلى الخديو بقتل الكواكبى... لم يؤيدوا اتهامهم بصراحة، وإن كانت الظروف والملابسات التى أحاطت بوفاة الكواكبى تكاد تثبت الاتهام... مثل التعجيل بدفنه،

والحرص على التأكيد أنه مات بالذبحة الصدرية، واهتمام بعض الصحف بنشر أعراض الذبحة... وتطبيقها على ما شكا منه الكواكبي ليلة وفاته...

وهكذا عاشت أفكار الكواكبي في مصر، وانطلقت من مصر... وقد جذبته مصر وهو حي. فأدى فيها رسالته، وجذبته وهو ميت... فكان مقره الأخير فيها...

obeikandl.com